

شيكات من دون رصيد

يتساءل متتبعو السياسة اللبنانية بكثير من التعجب، عن التناقض الكبير بين أقوال أركان الحكم، الذين يظهرون بها وكأنهم مسيطرون على الأوضاع العامة سيطرةً تامة، وبين العرائض الجنونية التي تعصف بهم وتطغى على تصرفاتهم، فمن جهة يدعون بأنهم يملكون سعادة، بإرادة لبنانية ساحقة، وبالتالي يجب أن يكونوا معها مرتاحين إلى حاضرهم ومستقبلهم، ومن جهة أخرى يعتمدون سلوك المذعورين الذي لا يعكس أي ارتياح لهذا الحاضر، أو على هذا المستقبل.

لا شك أن المجتمع اللبناني، في أكثريته الساحقة، يعيش ظروفاً قاسية تُخضعه لجميع أنواع الانفعال، فتحدّ من قدرة الناس على استيعاب الأحداث، والتعمق في خلفياتها. فالخوف يشلّ، والحاجة تمنع، والمذهبية تُعقل، والمحافظة على المصلحة أضمن من المجاهرة بالحقيقة، ومن يبقّ خارج هذه الدوائر، يخضع بأغلبه للتوجيه، ولا يشدّ عن القاعدة سوى النذر اليسير الذي تحاول السلطة إبعاده عن الرأي العام، من خلال الحظر الإعلامي.

وبين الواقع الإعلامي الذي تسيطر عليه السلطة، وتبثّ من خلاله سمومها مع صورتها المضخمة، وواقع المجتمع الذي يفقد الرأي الآخر، الذي يمكن أن يضيء خلفية مواقف السلطة، وإعطاء الأحداث أبعادها الحقيقية، تسيطر على الرأي العام أجواء تشاؤمية، وحالة من الإحباط، تضع الكثيرين في موقع الانتظار القاتل، المقرون باليأس من أي تغيير إيجابي.

لم تكن يوماً الثقة بالحكومة مفقودةً إلى هذا الحد، ولكن الثقة المفقودة تعوّض عادةً بثقة تُمنح للمعارضة، أما في وضعنا اللبناني الحاضر، فيريد بعض المعارضين أن يكونوا استيعابيين للمعارضة، واستيعابيين عن السلطة، أي بمعنى آخر، يريدون استيعاب المعارضة دون مطالبها الوطنية، وممارسة السلطة بنفس الشروط الحالية، تحت سقف الاحتلال وممارساته، التي أوصلت البلاد إلى حالة الإفلاس. فهم لا يستطيعون الخروج من حالة الطائف المزمّنة، ولا يريدون محاسبة سوريا لا داخلياً ولا خارجياً، كما أنهم لا يريدون محاسبة الحكومة أيضاً. والأغرب من كل هذا، نرى معارضة تدافع عن نفسها أكثر مما تُعارض، تعاتب وتأسف وتبرّر، تهرب من المواجهة أمام تجاوزات السلطة وتعسّفها، وتتحاشى تسمية الأشياء بأسمائها بغية استرجاع موقع فقدته في أروقة النفوذ.

أما الحكومة في المقابل، فليست سوى قضيباً بيد السوري، يشهره لردع المعارضين وتأييدهم عند الاقتضاء، ولا تملك من مقومات الوجود سوى ما تمنحها سوريا من دعم وتدعيم، وقد أشرفت هذه الأخيرة على الإفلاس السياسي والعسكري والاقتصادي، وأوراقها التي تهدّد بها أصبحت ملغاة من التداول، وغير مقبولة في المصارف الدولية. ولم تعد مطمئنة إلى واقعها الحاضر وإلى مستقبلها، لذلك أطلقت هي أيضاً أبواقها ترغي وتزبد وتهدّد. وقصة أوراقها الرابحة ليست سوى خدعة "بوكر"، بغية التحويل على اللبنانيين، وإخراجهم من لعبة التضامن والتكوكب حول حقوقهم في وطنٍ سيدي، حر، مستقل.

لا تخافوا أيها المواطنون، وأنتم مدعون اليوم إلى التلاحم وعدم الإصغاء إلى التهديدات، وليس هناك ما يخيف بعد أن استنفذ العملاء جميع ما لديهم من وسائل.

فالأرصدة السياسية السورية واللبنانية، الموالية والمعارضة، باتت حمراء، وتتعامل مع بعضها بشيكات من دون رصيد، وهذا الضجيج الإعلامي سيبيح فقط أصوات مطلقيه.

أما "هوبرة القبضايات" فلن تخيف أحداً، فكلهم ثعالب سقطت في برميل من البويا، وترقّطت بالألوان التي تملؤه، فتوهّمت أنها صارت نمورا.